جمالية تشكيل المكان في رواية مرسى فاطمة لحجي جابر إنموذجا

اعداد م. م. نور محمد شنيشل

جمالية تشكيل المكان في رواية مرسى فاطمة لحجي جابر إنموذجا

اعداد م. م. نور محمد شنيشل

وزارة التربية/ مديرية تربية الرصافة الثانية/ ثانوية المتفوقات الأولى

noor92master@gmail.com

المستخلص

نسلط الضوء في بحثنا هذا في رواية "مرسى فاطمة" وهو من الأدب الأفريقي المكتوب باللغة العربية من خلال دراسة جماليات تشكيل المكان الروائي ودلالات بنائه في رواية مرسى فاطمة للروائي الإرتيري حجي جابر. حيث شكل المؤلف مكانه الروائي مستخدما الخيال والمعطيات اللغوية للصورة الفنية والرمز والوصف فتنوعت الأمكنة عنده من حيث طبيعتها ومساحتها ومن حيث الألفة والعدائية. وكانت الدراسة وفقا للمنهج المتكئ على المعطيات البنيوية. حيث كان من نتائج الدراسة أن المكان الروائي كان متنفس الشخصيات والمسرود له على السواء، وأن المكان الطبيعي كان باهت الحضور في حين وظفت الأمكنة الصناعية لغايات ومقاصد تاريخية وأن انفتاح المكان لم يقابله انفتاح في الروح واستقرار في النفس على عكس توقع القارئ. وقد بدت علاقة الشخصيات بالمكان الأليف في الرواية أكثر حميمية فكان المكان في الرواية كيانا زاخرا بالحياة والحركة يؤثر ويتأثر ويتفاعل مع حركة الشخصيات وأفكارها ويتصل بالحدث الروائي ليعطيه قدرا من المنطق والمعقولية.

Abstract:

In this research, we shed light on the novel "Marsa Fatima", which an African literature is written in the Arabic language, by studying the aesthetics of the formation of the fictional place and the implications of its construction in the novel "Marsa Fatima" by the Eritrean novelist Haji Jaber. Where the author formed his novelistic place using imagination and linguistic data for the artistic

image, symbol and description, so the places varied in terms of their nature and area and in terms of familiarity and hostility. The study was according to the approach based on structural data. One of the results of the study was that the fictional place was the outlet for the characters and the narrative for it alike, and that the natural place had a dull presence, while the industrial places were employed for historical purposes and goals, and that the openness of the place was not matched by an openness in the spirit and stability in the soul, contrary to the expectation of the reader. The relationship of the characters with the familiar place in the novel seemed more intimate, so the place in the novel was an entity full of life and movement that affects, is affected, and interacts with the characters' movement and ideas, and is connected to the fictional event to give it some of logic and reasonableness.

الكلمات المفتاحية: جماليات – المكان – الصورة – البناء – الدلالة

المقدمة:

تعتبر الرواية من أهم الاجناس الادبية الحديثة، لكونها تعالج مختلف الاشكاليات الاجتماعية والفكرية والثقافية المتشعبة من جهة، ولكونها وعاء فنيا لمختلف الاجناس ويعد جماليات تشكيل المكان بوصفه تقنية فنية للازمة في الرواية وعنصر حيويا في تشكيل البناء الروائي بشكل عام تحكمه اللغة باعتبارها خطابا تشكيليا والواقع باعتبارها تمثيلا مفروضا أمام هذه التحولات الكتابية وبناء على ذلك تناولنا ظاهرة جمالية تشكيل المكان في رواية" مرسى فاطمة" لذا فقد وضعنا عنوانا لمسنا فيه إمكانية تلبية طموحنا المنهجي الذي سوف نحتكم إليه أثناء دراستنا للمكان وهو جمالية تشكيل المكان.

ومن هنا يرى الناقد حسن بحراوي أن المكان ليس عنصرا زائدا في الرواية، فقد يكون في بعض الأحيان هو الهدف من وجود العمل الروائي كله. اضافة الى ان للمكان الروائي فضاءات تتجاوز الواقع الخارجي وتصنفه اللغة انقيادا لأغراض التخييل الروائي وحاجاته وكما يرى د. سيزا، فالمكان في الرواية قائم في خيال المتلقي وليس في العالم الخارجي، وهذا المكان تثيره اللغة من خلال قدرتها على الإيحاء[1].

وتعد النظرية الجمالية واحدة من أهم النظريات التي عني بها الدرس الأدبي والنقدي قديماً وحديثاً بداية من فن الشعر لأرسطو مروراً بالمحاولات النقدية في الأدب العربي القديم ونهايته بالفلاسفة والنقاد الأوروبيين في الأدب الأوربي الحديث.

[1] حمادة سديف، وظيفة المكان وأهميته في الرواية المعاصرة، الانتقاد، العدد 1286، 1 آب، أغسطس 2008م: ص20.

جمالية تشكيل المكان في رواية مرسى فاطمة

لحجي جابر إنموذجا

اعداد م. م. نور محمد شنيشل

كان لابد أن نعنى بهذه الناحية ونثبت مفاهيم عدد من الألفاظ في العربية التي اقتضتها الدراسات اللغوية والأدبية الحديثة, وقد شد انتباهنا ونحن نتقصى لفظة المكان أن هناك الكثير من المصطلحات المقاربة لها يتعلق ذكرها بلفظة (المكان) تعلق مرادفة أو احتواء أو مقاربة في المفهوم ومنها: الامتداد، والبيئة، والحي والفسحة والفضاء والمحل والموضع وغيرها مما أشار إليه سابقونا بلمحات سريعة غير ملمين بمفاهيم كثير، من أجل ذلك "يجب أن يهتم الكاتب القصصي بتحديد المكان اهتماماً كبيراً ليعطي الحدث القصصي قدراً من المنطق والمعقولية كذلك ينبغي أن يعنى الكاتب بتصوير مفردات المكان الذي تتحرك فيه الشخصيات؛ لأن القارئ قد يستشف من هذا التصوير دلالات كثيرة تفسر أو تعمق أموراً تتصل بالحدث والمكان ليتشكل في الرواية ولا يأخذ شكلها الروائي الا من خلال الشخصيات وارتباطه بهم[2] حيث يعتبر احد العوامل الرئيسية التي يقوم عليها الحدث[3] ولن تكون هناك رواية ما لم يكن هناك مكان يلتقي فيها شخص بشخص وحدث ما وتحتاج الى الحبكة الروائية فالمكان لا ينفصل عن اشياءه فهو اذن يرتبط بالأشياء التي توجد فيه وليس التي تملوه[4] وتمنحه ذلك الثراء الذي تنتمي اليه مستقلا عن نوعية الاجسام الموجودة فيه، وسوف نبدأ أولاً بمفهوم الجمالية ثم نستعرض بعدها المفاهيم الأخرى.

اشكالية البحث:

ما دفعنا الى اختيار هذا الموضوع هو رغبتنا في الكشف عن جمالية الرواية من خلال البحث في جمالية المكان، خاصة وأن الكاتب حجي جابر يتعامل مع المكان بوصفه لغة ثانية تعشش فيه أحلامه والأحلام الشخصية. من خلال بحثنا هذا الذي اتبعنا فيه المنهج البنيوي القائم على التحليل والوصف، التحليلي لتقصي المكان من كل جوانبه وأهم إشكاليات هذا البحث نوجزها فيما يلي:

1. هل كان المكان فعالا في هذه الرواية؟ وهل لحضوره قيمه في ابراز ابعاده ومستوياته؟

---

[2] بحراوي، حسن، بنية الشكل الروائي، الفضاء – الزمن – الشخصية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1990م: ص29.

[3] عبد الفتاح، عثمان، بناء الرواية دراسة في الرواية المصرية، مكتبة الشباب، د. ط، 1982م: ص 59.

[4] وادي، طه، دراسات في نقد الرواية، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1994م: ص 36، 37.

2. ما مدى تأدية المكان الروائي للوظيفة؟ وهل هو مجرد ديكور للأحداث، ام تجاوزت ذلك الى لعب دور العامل المهم في تطوير الاحداث؟
3. ما هي علاقة المكان بمختلف العناصر الروائية الأخرى (الشخصيات الوصف)؟
4. ماهي اهم التشكيلات المكانية الواردة في الرواية؟

مفهوم الجمالية بين الفكر الإسلامي والفلسفة الغربية.

الجمالية أو "علم الجمال" مصطلح يستعمل في الفكر المعاصر للدلالة على تخصص من تخصصات العلوم الانسانية التي تعَنى بدراسة "الجمال من حيث هو "مفهوم" في الوجود، ومن حيث هو "تجربة" فنية في الحياة الانسانية.

الجمالية هو علم يبحث في معنى "الجمال" من حيث مفهومه وماهيته ومقاييسه ومقاصده. (والجمالية) في الشيء تعني أن الجمال كوجود حقيقي وجوهري وكغاية مقصديه، فما وجد إلا ليكون جميلا[5] وعلى هذا المعنى انبنت سائر الفنون الجميلة بشتى أشكالها التعبيرية والتشكيلية.

وإذا تناولنا مصطلح "الجمالية" أو "علم الجمال" ما هو الا ترجمة لكلمة "استطيقا"، وهي كلمة ولدت في رحم الفلسفة الغربية من الناحية الاصطلاحية خلال القرن الثامن عشر الميلادي. فقد كان الفيلسوف "باومجارتن" سنة 1750م أول من سك هذا اللفظ ثم انتقل استعماله إلى سائر الثقافات والعلوم الانسانية كالأدب والفن.

إلا أن "الجمالية" من حيث المفهوم قديمة قدم الانسان نفسه، ولم تكن الحضارة الاسلامية مستثناه من هذا المصطلح بل تجلت كما كانت لها تجلياتها الخاصة والمتميزة مع كل تجربة في الادب كتجربة إنسانية مختلفة[6].

كما يعد (الجمال) في الاسلام أصل أصيل، سواء من حيث هو قيمة وتشريعية، أومن حيث كمفهوم كوني، وكذا من حيث كتجربة وجدانية إنسانية. ومن هنا كان تفاعل الانسان المسلم مع قيم الجمال ممتدا من مجال العبادة إلى مجال العادة، ومن كتاب الله المسطور إلى كتاب الله المنظور. مما

---

[5] حسين، خالد، شعرية المكان في الرواية العربية المعاصرة، دار التكوين للطباعة والنشر، ط1، 2022م: ص 23.

[6] يقول ولترت ستيس: "لقد نظر الاستطيقيون إلى الجمال على أنه الهدف الوحيد للفن. وهم على حق في ذلك. ولا يصح ذلك إلا إذا استخدمت كلمة "الجمال" بمعنى واسع إلى أقصى حد." معنى الجمال: نظرية في الاستطيقا، ص.94: ترجمة إمام عبد الفتاح إمام... نشر المجلس الأعلى للثقافة، مصر: .2000 طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية. ثم استعمل مصطلح "الجمالية" في الادب الحديث للدلالة على أن "الجمال" هو القيمة الأولى للنص، وأنه لا عبرة بما لم يبين على ذلك؛ إذ الوظيفة الاولى للنص هي أن يكون جميلا. الأستاذ عروي محمد إقبال، جمالية الادب الإسلامي، نشر المكتبة السلفية، الدار البيضاء، المغرب، ط1: 1986م: ص 94، 95

خلد روائع من الآدب والفن التي أنتجها الوجدان في قراءته الراقية للكونين وسياحته الرائعة في عالَم الغيب وعالم الشهادة.

ولقد انبرى الفيلسوف الفرنسي المعاصر "إتيان سوريو" فيلسوف وأستاذ علم الجمال في جامعة "السربون بباريس"[7] للدفاع عن هذه الحقيقة، ردا على بعضهم، لكنه مع ذلك لم يكن موفقا كل التوفيق بسبب نقص المعطيات عنده عن قيم الجمال في الاسلام وعن تجربة المسلمين في ذلك المجال. يقول محيلا على اتهامات "بلزاك" في كتابه البن الملعون": "لطالما قيل – وعلى غير وجه من حق – إن الفن العربي قد كان فنا إدراكيا لا يتوجه إلى الفكر النظري المحض وليست له أية قدرة على الأثارة العاطفية!"[8]. ثم يستطرد بعد ذلك مدافعا عن الجمالية الاسلامية، بشواهد من جمالية العمران وفن العمارة بالبلاد العربية والاسلامية، لكن مع الآسف بتحليلات هي أقرب إلى الخرافة منها إلى المقاييس العلمية للجمال.

يقول: "إن هذا الرأي هو خاطئ تماما والحقيقة هي ما ذهب إليه من قبل غاييGayet : عندما تحدث في كتابه: "الفن العربي" عن المشاعر التي تثيرها من وجهة نظر الجمالية العربية والمعطيات الهندسية. فهو يقول بأن الدوائر الهندسية إذا كانت زواياها المتعددة مزدوجة، فإنها توقظ في النفس المشاعر العميقة المطبوعة بطابع الصفاء العذب، أما إذا كان عدد زواياها مفردا فإنها تبعث على "الحزن المبهم والقلق والاضطراب". ويقول أيضا: "إن الصورة المتكونة من الجمع بين المربعات والمثمنات تبعث على فكرة السكون الابدي، أما تلك التي تنبثق من الاشكال ذات الزوايا التسع فإنها توقظ الإحساس بسر مبهم مضطرب"[9].

والعجيب حقا هو كيف فهم "غايي" أن هذا التفسير الغريب لأشكال الهندسية هو "من وجهة نظر الجمالية العربية ثم كيف قبل منه الاستاذ "سوريو" هذا الهذيان ونقله على سبيل التبني في كتاب لقد كان

[7] تلك هي القضية التي أنبنى عليها موضوع كتاب البروفسور إتيان سوريو "الجمالية عبر 1982.

[8] سوريور، ايتان، الجمالية عبر العصور، ترجمة: ميشال عاصي، دار منشورات عويدات بيروت، باريس، د. ط، 1982م: ص 179.

[9] سوريور، ايتان، الجمالية عبر العصور: ص 180.

الأولى بغايي هذا أن يعرض أحواله المترددة ما بين "الصفاء العذب، والحزن المبهم، والقلق، والاضطراب"[10].

المكان:

يشكل المكان عنصرا حيويا من العناصر الفنية التي يقوم عليها بناء العمل الأدبي الروائي، فهو يلعب دورا مهما في تشكيل النسيج العام للنتاج الروائي، وهو العمود الفقري الذي يربط أجزاء العمل الروائي بعضها ببعض من شخصيات وأحداث وسرد وحوار، أي إنه الإطار العام والوعاء الكبير، الذي يشد أجزاء العمل كافة، وهو الجزء المكمل للحدث، وأرضية الفعل وخلفيته[11]. وتظهر أهمية المكان في كونه أهم عناصر الرواية، فهو الموضع الذي تجري فيه الأحداث وتتحرك خلاله الشخصيات، وقد يكون أحيانا هو الهدف من العمل الروائي.

وإن المكان في الرواية غير المكان في الواقع، فهو مكان خيالي له مقوماته الخاصة وأبعاده المتميزة، وتتمثل أهمية المكان في الرواية باعتباره عنصرا فاعلا في تطورها وبنائها وفي طبيعة الشخصيات وعلاقاتها، وهو فضاء يتسع لبنية الرواية ويؤثر فيها.

ويمثل ايضا الفضاء الذي يتسع لحركة الإنسان ويتفاعل معها، ويكشف عن جوانب من الشخصية، ويبرز مدي ما تمتلكه من حرية، وطبيعة العلاقة بينه وبين الأشياء والأحياء، وبينه وبين الزمن.

إن الروائي المبدع الذي يتعامل مع المكان تعاملا إبداعيا، فيتخذ من المكان إطارا عادياً، يوظف من خلاله التقنيات السردية من شخصية وحدث وزمان، كأنه خشبة مسرح واسعة، تعرض الشخصيات من خلالها رؤيتها واتجاهاتها.

ويتمثل مفهوم الباحث للمكان الروائي بأن: المكان في مجمل أحواله (يشير إلى المشهد أو البيئة الطبيعية أو الاصطناعية التي تعيش فيها الشخصية الروائية، وتتحرك وتمارس وجودها، وتضم قطع الأثاث والديكور والأدوات كافة بمختلف أنواعها واستعمالاتها، كما يشمل الوقت من اليوم، وما يترتب عليه من أضواء مختلفة أو ظلمة والطقس بكل أحواله، وتدخل ضمن المكان الأصوات والروائح).

---

[10] مثل كتاب كشف المحجوب لإلمام الهجويري، ومنطق الطير لفريد الدين العطار، وهذا من الناحية الجمالية قطعة فنية رائعة. ومثله مدارج السالكين البن القيم، وكتابه حادي الأرواح، ونحو ذلك كثير. ومن أهم الموسوعات الجمالية في الفكر الإسلامي الحديث مجموعة: كليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي رحمه هللا، ويتلوه في ذلك وارث سره الأستاذ فتح هللا كولن في أغلب كتبه وعلى رأسها: "التالل الزمردية" وديوانه الشعري: "المضرب الكسور".

[11] ينظر: الحمداني، حميد، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991م: ص 75، 76.

ويفهم من هذا التعريف: أن المكان في الرواية لا يراد به دلالاته الجغرافية المحدودة، المرتبطة بمساحة محدود من الأرض في منطقة ما بل هو كيان زاخر بالحياة والحركة، يؤثر ويتأثر، ويتفاعل مع حركة الشخصيات وأفكارها كما يتفاعل مع الكاتب الروائي ذاته.

اذن هو المكان اللفظي المتخيل، أي المكان الذي تقيمه الكلمات انصياعا لأغراض التخييل الروائي وحاجته في النص الروائي الذي يخلق عن طريق الكلمات مكانا خياليا له مقوماته الخاصة وأبعاده المميزة، فهو حاصل لمعني ولحقيقة أبعد من حقيقته الملموسة.

ويغدو هنا ان المكان الأداة الأكثر استيعابا لمعاني النص وفنيته إضافة إلى أن العمل الأدبي يفقد أصالته وخصوصيته إذا افتقر عنصر المكان.

ومن هنا اهتمت الدراسات الروائية بعنصر المكان وتعددت المصطلحات في تلك الدراسة فكان منها: المكان الروائي، والمكان في النص الروائي ليس شيئا صامتا وإنما يعد عنصرا يحمل الكثير من الدلالات ومحورا يدور حوله سائر عناصر الرواية وله تأثيره في تفجير طاقات المبدعين والتعبير عن مقاصدهم. ولا ينفي ذلك حقيقة كونه مكانا متخيلا تشكله الكلمات وليس الموجودات ولكن علاقته بالواقع مقررة ومعترف بها. ذلك أنه يستحي على المبدع بناء الاحداث والشخصيات في مكان بدون ملامح ولذا يعمل الروائيون على إضفاء الواقعية على المكان الروائي فيحول المكان الواقعي إلى رمز يمكنه من التعبير غير المباشر عما لا يمكنه التعبير عنه مباشرة. فيتمكن الروائي بذلك من ضبط حركة العناصر الفنية في روايته.

المفارقة بين المكان والفضاء واهمية المكان في العمل الروائي:

اما في مجال الدراسات الروائية اهتم دارسو الرواية بدراسة عنصر المكان مما نتج عنه مجموعة من المصطلحات الخاصة بدراسة هذا العصر مثل: المكان الروائي, الفضاء, والفضاء الجغرافي, الفضاء الدلالي, الفضاء النصي, الفضاء بوصفه منظورا [12].

[12] ينظر كلا من: حمودة، حنان محمد موسى، الزمكانية وبنية الشعر المعاصر، أحمد عبد المعطي أنموذجا، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2006م: ص9؛ شاهين، أسماء، جماليات المكان في روايات جبرا ابراهيم جبرا، دار الفارس للنشر والتوزيع، الاردن، ط1، 2001 م: ص20.

وقد أثر المشتغلون بدراسة عنصر المكان في الرواية استخدام مصطلح الفضاء الروائي عن مصطلح المكان الروائي حيث وجدوا في الأول شمولية أوسع لكونه يشمل المكان. فالمكان الروائي هو مكان بعينه تجري فيه أحداث الرواية بينما يشير الفضاء الروائي إلى المسرح الروائي بأكمله ويكون المكان داخله جزءا منه.

وقد حظي كل من الفضاء والمكان في الرواية باهتمام كثير من الدارسين لربما؛ لأن المكان في النص الروائي يتجاوز كونه مجرد شيء صامت أو خلفية تقع عليها أحداث الرواية فهو عنصر غالب في الرواية حامل لدلالة، ويمثل محورا أساسيا من المحاور التي تدور حولها عناصر الرواية لذا يرى البعض (أن العمل الأدبي حين يفتقد المكانية، فهو يفقد خصوصيته وبالتالي أصالته) .

اما المكان وتأثيره خارج النص الروائي فقد لعب دور المفجر لطاقات المبدع[13] وعبر عن مقاصد المؤلف اذ عرف بانه الفضاء الذي يلف مجموع الرواية بما فيها من أحداث التي قامت على السرد بما تحوية من الاحداث التي تفترض دائما استمرارية المكان ,فالفضاء هو الذي يؤطر الاحداث وهو موجود في الضرورة اثناء حدوث الواقع .

إن المكان الروائي كبناء لغوي يشيده خيال الروائي والطابع اللفظي فيه يجعله يتضمن كل المشاعر والتصورات التي تستطيع اللغة التعبير عنها ذلك أن (المكان في الرواية ليس هو المكان الطبيعي أو الموضوعي وإنما هو مكان يخلقه المؤلف في النص الروائي عن طريق الكلمات ويجعل منه شيئا خياليا). فالمكان في النص الروائي مكان متخيل وبناء لغوي » تقيمه الكلمات انصياعا لأغراض التخييل وحاجته "فالمكان إذن هو نتاج مجموعة من الأساليب اللغوية المختلفة في النص"[14] كما يراه بعض الدارسين بأن عبقرية الأدب.

وللروائي سبل شتى في تشييد الفضاء أو المكان الروائي، منها: الوصف، واستخدام الصورة الفنية، توظيف الرموز، ولكل منها دوره الفعال في النص الروائي.

فان الروائي حينما يلجأ إلى الوصف يبذل قصارى جهده للبرهنة على قدرته أن يجعلنا نرى الأشياء أكثر وضوحا، ذلك أن الوصف هو: "ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات"[15]، أي ذكر الأشياء في مظهرها الحسي الموجودة عليه في العالم الخارجي. فالوصف يقدم الأشياء للعين في صور أمينة تحرص على نقل المنظور الخارجي أدق النقل.

---

[13] الحمداني، حميد، بنية النص السردي: ص62.

[14] الضبع، مصطفى، استراتيجية المكان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1998م: ص 76، 77.

[15] مصطفى الضبع. مرجع سابق: ص70

ولما كان الوصف يلائم الأشياء التي توجد بدون حركة، فإنه يختص بتمثيل الأشياء في سكونها. فقد رمز إلى الفضاء بأبعاده الجغرافية والثقافية والسياسية وكمحاولة منه لرد الاعتبار لمصطلح الفضاء في الساحة النقدية قائلا" فالفضاء كرمز من الترابطات والفضاء كعنصر تكويني "في رواية "مرسى فاطمة".

والروائي حين يلجأ إلى وصف المكان أو الفضاء الروائي، فإنه يرمي من وراء ذلك إلى بث المصداقية فيما يروي اذ يجعل من المكان في الرواية مماثلا في مظهره الخارجي للحقيقة نابعا من مرجعيته الواقعية. حيث ان الروائي عندما يصف المكان الطبيعي, يستثمر عناصره الفيزيائية لتجسيده بحيث يجعلنا نقف على الصور الطوبوغرافية للمكان والتي تخبرنا عن مظهره الخارجي[16]، "إذ إنه يرسم صورة بصرية تجعل إدراك المكان بواسطة اللغة ممكنا"[17] جاعلا من الوصف أداة لتصوير المكان وبيان جزئياته وأبعاده بتوظيفه عناصر المكان المحسوسة لتشكيل مكانه المتخيل» ويدخل العالم الخارجي بتفاصيله الصغيرة في عالم الرواية التخييلي ويشعر القارئ أنه يعيش في عالم الواقع لا عالم الخيال, ويخلق انطباعا بالحقيقة أو متأثرا مباشرا بالواقع.

اذن الروائي حين يعمد إلى إسقاط مجموعة من الصفات الطوبوغرافية على الفضاء أو المكان الروائي، والتي هي عبارة عن "المعاني الوصفية التي تدخل في تركيب صورة المكان والقيم الرمزية المنبثقة عنها" [18]، إنما يفعل ذلك بغية البرهنة على العلاقة بين المكان والشخصية في النص الروائي.

وأن الاختلاف في هذه الصفات وتنوعها من مكان إلى آخر في الفضاء الروائي يمكن أن يعكس لنا الفروقات الاجتماعية والنفسية والأيديولوجية لدى شخوص الرواية. فضلا عن أن الدلالات النابعة من هذه الفروق يمكن أن تكون تعبيرا عن رؤية شخوص الرواية للعالم وموقفهم منه, لذا نجدها تكشف عن الوضع النفسي للشخوص وحياتهم الاشعورية بحيث يصير للمكان بعد نفسي يسبر أغوار النفس البشرية "عاكسا ما يثيره المكان من انفعال سلبي أو إيجابي في نفس الحال فيه" [19].

---

[16] مصطفى الضبع. مرجع سابق: ص151.

[17] ابن جعفر، قدامة، نقد الشعر، المطبعة المليجية، القاهرة، د. ط، 1935م: ص70.

[18] بحراوي حسن، بنية الشكل الروائي، الفضاء – الزمن – الشخصية: ص60.

[19] الفيصل، سمر روحي، بناء المكان، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، العدد 306، 1996م: ص13.

يستخدم الروائي خياله لتشييد المكان الروائي بمعطيات اللغة ويضمن الألفاظ اللغوية المشاعر والتصورات التي تستطيع اللغة التعبير عنها ذلك ما نراه واضحا عند الكاتب حجي جابر فقد دارت أحداث الرواية في أماكن عديدة ويحمل عنوانها اسم مكان فما مرسى فاطمة إلا شارع كان يلتقي فيه البطل بحبيبته سلمى يقول " كنت أقضي معظم النهار في الشارع الذي جمعني بسلمى" لم يكن البطل يعبأ بالشارع واسمه ولم يكن يرى فيه إلا "مواعيد الظهيرة" كما حكى عندما اختفت سلمى وأزمع أن يلحق بها فترك عمله وتفنن في الالتحاق بالخدمة الوطنية وخاض في سبيل ذلك تجارب كثيرة تعرض خلالها للضرب والاستهزاء والسخرية والاتهام بالجنون حتى وجد ضابطا استمع إليه ووعده أخيرا بالانضمام إلى المجندين بعد أسبوعين فوجد فيهما "فرصة أكبر للتعرف على تاريخه وناسه بعد أن كنت لا أرى فيه إلا مواعيد الظهيرة "[20].

ثم تتردد في الرواية أسماء أماكن كثيرة مثل إندام اريام وهي المحطة التي يبدأ عندها شارع مرسى فاطمة ومدرسة أسمرا الثانوية والكنيسة وقندع وهي قرية والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة والمعهد الديني وساوا وهو معسكر الخدمة العسكرية والسوق والكاتدرائية والانتركونتنتال ومركز الشرطة وقلب تقراي وانكليزان وعلابر عديد وهي بلدات أومدن أريترية وجدة وكسلا وغيرها كالملاعب والمسارح وعلينا نتذكر دوما أن: "المكان في الرواية ليس هو المكان الطبيعي أو الموضوعي وإنما هو مكان يخلقه المؤلف في النص الروائي عن طريق الكلمات ويجعل منه شيئا خياليا "هكذا صنع حجي جابر بمرسى فاطمة حين جعل منه خيالا قوامه الكلمات والالفاظ وليصوره وفقا لما يحتاج اليه التخييل فها هو يعلل لنا تسميته بهذا الاسم قائلا: مرسى فاطمة اسم اطلقته الجبرته على هذا الشارع تيمنا باسم جزيرة مباركة قرب مصوع سكنتها امراة صالحة من نسل الصحابة ليحل محل اسم الامبراطورية منن زوجة هيلاسي والتي اختارته ودون سواخ ليحمل اسمها" ودون ان نحتكم للحقائق التاريخية فان هذا التعليل يحمل الكثير من الاشارات والدلالات الوطنية والقبلية والدينية والتحريرية.

المبحث الأول

جمالية المكان في رواية "مرسى فاطمة"

أنواع المكان:

هناك صعوبة في تحديد المكان بصفة دقيقة جدا وموحدة ولكن توجد اجتهادات تطبيقية حددت أنواع المكان وأبعاده وصفاته، وهذه الاخيرة أخضعته لمقاييس ومعايير معينة فكان هناك مكان مجازي وهندسي ومعاد وتجربة معاشه كالمكان أليف وموضوعي ومفترض ومفتوح ومغلق وغير ذلك من الأسماء

---

[20] دراز ، سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د. ط، 1984م: ص82.

فطريقة معالجة المكان اختلف من باحث إلى آخر ومن رواية إلى أخرى، وفي ذلك يقول حميد الحميداني: "إن الامكنة بالإضافة إلى اختلافها من حيث طابعها ونوعية الأشياء التي توجد فيها تخضع في تشكيلاتها أيضا إلى مقياس آخر مرتبط بالاتساع والضيق أو الانفتاح والانغلاق. "[21] (لقد حدد غالب هلسا مستويات المكان في الرواية العربية بالعناوين الاتية:

1. **المكان المجازي:** هو مكان مفترض وهو بمثابة مكان تجري فيه الاحداث ومكمل لها مثل الاشجار التي تعترض طريق البطل وتخفي الهارب، وقد يكون هذا المكان وصفا لحالة تمر بها إحدى الشخصيات الروائية مثل الفقر، والغنى.. ولهذا تكون صفات مثل هذا المكان من النوع الذي ندركه ذهنيا ولكننا الا نعيشه.
2. **المكان الهندسي:** ويتجسد هذا المكان في الروايات التي يغلب عليها اليأس والعجز والاحباط وهو المكان الذي تتدخل يد الإنسان في تشكيله، وإعطائه طابعا مختلفا عن غيره من الفضاءات ولهذا المكان حضور واسع كالبيوت بما فيها من حجرات، والقاعات الفخمة للاستقبال، والفنادق، والبساتين المزروعة، وحتى السجون، وأماكن أخرى عمل الإنسان على تكوينها وصيرورتها، ثم بعد ذلك كانت عاملاً أساسياً للتأثير في نفسيته ،وهناك أماكن لها اثر عميق ومحبب في النفس، ومجرد ذكرها يثير لدى المسرود له مشاعر مختلفة، ومن هذه الأماكن وقد حاول الروائي تسليط الضوء عليها، ليس بوصفها أماكن تأطير الحدث، ووجود الشخصيات حسب، ولكن لغايات ومقاصد ذات بعد تاريخي، وقد جاء في وصف الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة إنها: "تحولت إلى حلم بالنسبة للشباب المتدين في قندع بخاصة بعد عودة أوائل من التحقوا بها وقد ظهر نبوغهم في علوم الدين واللغة ...وكل ما عاد خريج التحق بالمعهد الديني كمدرس حتى تحول المعهد بدوره إلى وجهة يقصدها طلبة العلوم الدينية من كافة مناطق إرتيريا".

وعن المعهد الديني يقول: "بدأ دور المعهد يكبر ويظهر أثره المتعاظم مع كل حفل تخرج كنا نتقطر رجالا ونساء على ساحة الاحتفال من كل القرى المحيطة بقندع، لنشاهد عروضا في الفنون القتالية، ونستمع إلى أحدث الأناشيد الجهادية القادمة من السعودية "وكما نرى هنا فلم ينشغل المؤلف ولم يشغلنا بالوصف الهندسي أو الشكلي للمعهد ولا الجامعة ولم يتوقف عند تصوير المكان لذاته ولكنه أفلح

[21] الضيع، مصطفى، استراتيجية المكان: ص109.

في نقل الجو العام له ووصف تأثيره الاجتماعي، وهذا لأنه كان يعمل على تهيئة القارئ بما سيؤول من أحداث لاحقة.

3. **المكان كتجربة معيشة:** يعد هذا المكان من أكثر الاماكن تأثيرا في حياة الانسان ويبقى مخلدا ومحفورا في ذاكرته، فهو الذي يشكل – دون أي مكان آخر– ذاتيته ويعد البيت أهم مكان يعمل على دمج أفكار الانسان وذكرياته وأحلامه إذ يسهم في تكوين شخصيته، "ويحفظ ذكرياته ويتضمن كل تفاصيل حياته وكينونته الخفية أي الماضي والحاضر والمستقبل.
4. **المكان المعادي:** تتمحور حوله الاماكن الاتية: السجن، سجن سيناء هو مكان للقهر، والذل والاحتقار، يساق إليه البشر لاقتلاع أعضائهم والإتجار بها، وهو المكان المعادي الذي تنعدم فيه أدنى معاني الانسانية، ويحس فيه الشخص وكأن الطبيعة الخالية من البشر مكان الغربة والمنفى وما شابه ذلك، وهو المكان الذي يقف الإنسان بالمرصاد لمواجهة إنسانية وقد شبهه بالمجتمع الابوي نقيض الام وهي لدلاته على السلطة والتحكم بالنسبة الى غاستون باشالر ومن خلال كتابه "جماليات المكان" فإنه يدرس المكان ومدى ما يثيره من خيال لدى المبدع والمتلقي، والمكان المعادي لديه هو المكان الاليف، فقد انصبت دراسته على البيت " بيت الطفولة هو مكان اللفة، ومركز تكييف الخيال وعندما نبتعد عنه نظل نستعيد ذكراه، ونسقط على الكثير من مظاهر الحياة المادية ذلك الاحساس بالحماية والامن الذي كان يوفرها لنا البيت[22].

ومن الأماكن المعادية بطبيعة الحال في رواية مرسي فاطمة مخيم الشجراب للاجئين الأرتيريين في السودان ذلك المخيم بدا وكأنه الجنة الموعودة والملاذ الأخير لمن فكروا في الالتجاء إليه ولكن ما أشد المفاجأة ويا خيبة الأمل".

بلغنا الشجراب أخيرا كان الفضول يسكنني لرؤية جنتنا الموعودة وملاذنا الأخير لم نجد مدخلا ،وجدنا عوض ذلك أرضا صحراوية كبيرة تتناثر فيها القطاطي والخيام البالية وبعض البيوت الطينية ... روائح كريهة كانت الحافلة تشق طريقها بصعوبة وسط مياه طينية نتنة "[23] إن الأماكن المعادية تتشابه "ما أبعد الشجراب عن ساوا وما أقربه من آلامها "[24] إن الحياة فيهذا المخيم صعبة تؤدي بالشخص إلى

---

[22] حجي جابر، جمالية تشكيل المكان في رواية مرسى فاطمة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2013م: ص 36.

[23] ينظر: قويفلي، محمد، المكان الروائي في روايات غسان كنفاني نموذجاً، مجلة جامعة الملك سعود، الآداب، 1993م، العدد2، المجلد5، الرياض: ص 349؛ الجيلاني، عبد الرحمان، تاريخ المدن الثالث (الجزائر، المدية، مليانة) بمناسبة عيدها الألفي، الجزائر، ط2، 1972م: ص89.

[24] باشلار، غاستون، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1987م: ص9.

أن يكره نفسه وبلده لأنه لا يملك " أن ينجو من سطوة الشجراب لم يكن المخيم يترك أحدا دون أن يصيبه بعطب ما أو يشوهه"[25] ولم يتركنا المؤلف حتى يأخذنا إلى أكثر الأماكن عداوة على الإطلاق: إسرائيل لتدهشنا المفارقة العجيبة من أن يتعلق بها بعض الشباب ويرون فيها فكاكا من ماضيهم الأليم " كان الهرب إلى إيلات هوفكاك من الماضي أكثر منه تعلق بالمستقبل"[26] ولتصدمنا ممارسات الاتجار بالبشر وتهجيرهم إلى إسرائيل " إنه سمع يوما أحد حراسه يقول إنه لن يسمح لإفريقي بأن يغادر إلى إسرائيل .عدو لا ينبغي أن نصدر له أشخاصا كاملين" [27].

عجيب أن يجد أحد أشخاص الرواية أملا في العوض عن قطعة من جسده حين يصل إلى إسرائيل عما لاقاه في صحراء سيناء " لأجد نفسي أسير على غير هدى في صحراء سيناء حتى وقعت في أيدي البدو ...بدأوا في تعذيبي ولما تأكدوا من صدقي أرادوا قتلي فقررت الاستسلام والاستغناء عن إحدى كليتي سيعوضني الله خيرا حين أصل إلى إسرائيل "[28] كيف له أن يصدق هذا الأمل الكذوب وهو يعلم إن كليته قد انتزعت من أحشائه لتزرع في جسد شيخ فان من الإسرائيليين؟ وأي عذاب رآه في موطنه فحمله على الهروب حتى إلى الجحيم؟ ومع كل الذي قلناها فإن المؤلف ينبهنا بجدية إلى أنه" تتسلل حميمية الأماكن إلينا ببطء حتى تلك التي لا نشعر بود كبير نحوها تستقر تحت جلودنا. حتى إذا حان موعد فراقها خرجت في كامل زينتها لتخلق حالة تأبين مؤثرة " [29] هكذا شعر الراوي بالأسى والحزن حين قرر أن يترك الشجراب متجها إلى إيطاليا بعد أن حاولت أم أواب إقناعه بقبول عرض كارلا: " ما رأيك أن تعود معي إلى إيطاليا؟ هناك ستبدأ حياة جديدة وتضع حدا لمعاناتك " وشجعه أمير قائلا: "لا أدري ربما تكون إيطاليا مكانا ملائما كي تبدأ من جديد كي تجد وطنا ولو بديلا[30] وهو الذي يعلم كما قال له كداني أن الوطن البديل قد يبقيك حيا ولكنه لن يهبك الحياة! ولكنه ورغم كل ذلك قبل أن يفكر في العرض ويحاول قبوله وحين أوشك على الوداع أحس بألم الفراق لمكان لم يدخله إلا راغما وطامعا

---

[25] حجي جابر، جمالية تشكيل المكان في رواية مرسى فاطمة: ص141.

[26] الرواية نفسها: ص 164.

[27] الرواية نفسها: ص199

[28] الرواية نفسها: ص175.

[29] حجي جابر، جمالية تشكيل المكان في رواية مرسى فاطمة: ص182.

[30] الرواية نفسها: ص181.

وممنيا نفسه بسرعة إيجاد حبيبته والعودة بها إلى وطنه. "بدت ملامح الخيمة مختلفة وأنا أراها للمرة الأخيرة، تسرب إلى شعور بمفارقة مكان ممتلئ بالألفة "[31] وإنه الوقت يداوي كل الجروح فمعه " تسودن المخيم بناسه وطباعهم وأفراحهم وحتى أحزانهم"[32] فأصبحت أم أواب بعد طول إقامتها في السودان؛ تعد الخرطوم عاصمة لها نلمس ذلك بوضوح حين كانت تتحدث عن مراسيم الزواج السودانية التي أقيمت في زواج شابين أرتيريين من سكان المخيم" العادات دي جاتنا من العاصمة" فاستغربت كارلا وسألتها: من أسمرا؟ فأجابت مستدركة: لا، من الخرطوم!!! فلعلها من طول إقامتها نسيت أن الخرطوم هي عاصمة السودان وليس أرتيريا.

علاقة المكان بمختلف العناصر الروائية الاخرى والشخصيات.

يظهر المكان في الرواية الرومانسية معبرا عن نفسية الشخصيات ويمثل في مثل هذه الروايات للأفكار والمشاعر تنشأ بينه وبين الإنسان علاقة وطيدة يؤثر فيها فنيا كل طرف في الآخر. وفي كلتا الحالتين يظل المكان في إطار المعنى التقليدي للمكان في الرواية .هذا المعنى يمثل المنهج البنيوي للرواية، أما المكان الذي يسهم في بنية العمل الروائي فيشكل بنية فوقية يمكن أن نطلق عليها مصطلح الفضاء الروائي، وهنا يتسع المكان ليشمل العلاقات بين الأمكنة والشخصيات والأحداث كما ترى د. سمر روحي الفيصل في مثل هذا العمل يحدث المكان الروائي قطيعة بينه وبين مفهومه كديكور. وهكذا فإن المكان الروائي لا يتشكل إلا باختراق الأبطال له، وليس هناك أي مكان محدد مسبقا، وإنما تتشكل الأمكنة من خلال الأحداث التي يقوم بها الأبطال ومن المميزات التي تخصهم.

إذا "المكان" في الرواية يعتبر مسرحا للأحداث والحيز الذي يتحرك ويعيش فيه شخوص الرواية فتنشأ العلاقة المتبادلة بين المكان والشخوص فتمنح الرواية خصوصيتها، وأن كل نص سردي ناجح له دلالاته المكانية وهي أول ما يشد القارئ للرواية على سبيل المثال إن الروائي يذكر ضواحي أسمرا التي يثني عليها من خلال شخصيّاته لم تكن في الحقيقة إلا مرسى فاطمة. ويخبرنا على لسان شخصيته بطرس أن مرسى فاطمة اسم أطلقه "الجَبَرتة" على الشارع تيمنا باسم جزيرة مباركة قرب مصوّع سكنتها امرأة صالحة من نسل الصحابة، ليحل محلّ اسم الإمبراطورة "مِنِنْ" زوجة "هيلاسلاسي"، والتي اختارته دون سواه ليحمل اسمها.

ويشير إلى أن الشارع يبدأ بكنيسة "إندا ماريام" وتنتهي تفرعاته عند جامع الخلفاء الراشدين، وقد بناه الإيطاليّون بأموال تاجر يمنيّ استوطن أسمرا. ويذكر أن مرسى فاطمة يمثل وطنا رحبا لكل سكانه.

---

[31] الرواية نفسها: ص 235.

[32] الرواية نفسها: ص 238.

جمالية تشكيل المكان في رواية مرسى فاطمة

لحجي جابر إنموذجا

اعداد م. م. نور محمد شنيشل

يصادق في ساوا "كداني" الذي يبدو واسع الثقافة والاطلاع، يقرأ فصولا من "مزرعة الحيوان" لأورويل، يجري مقارنات بين ما يرِد فيها والواقع الذي يعيشه ويعاني منه. يشاركه ألمه، يتأثر له وهو يحكي له خيبته بفقده سلمى التي يصفها بأنها بالنسبة له مشروع بحجم الوطن، وأنه بين يديها يشعر بالأمان، ولجبينها الأسمر ينتمي، وأنها لغته وحدوده وخريطة وعيه واحتياجاته.

بعد سلسلة محاولات للعثور على سلمى وفشله بذلك، يقرّر بطل حجي جابر الهرب، والتوجّه نحو السودان، باحثا عن حبيبته، فيقع في قبضة "الشفتا" الذين يتحكّمون بالناس. يصفهم بأنّهم بدو رحل قدموا إلى السودان بعد أن ضرب الجفاف مناطقهم، وتكالبتْ عليهم قوّات الأشراف فطردتهم من ديارهم. وأنّهم يعيشون بين السودان وإريتريا.

يكتشف أنهم يأسرون الناس ويعطونهم مهلة لدفع ما عليهم، قبل أن يرسلوهم إلى سيناء المصرية. حيث لديهم قسم يعمل في تجارة تهريب البشر إلى السودان، وهي تجارة رائجة كما ترى، لكن القسم الآخر يعمل

في تهريب البضائع والاسلحة من السودان واليه، وهؤلاء يحظون بحماية من جنرالات نافذين.

... إن الروائي يذكر المكان في روايته لتدور أحداثه فيها، وقد يشير إلى موقع هذا المرسى، وطبيعة السكان فيه وعلاماته المكانية والجغرافية وهو بهذا كله يمهد مكانيا للإحداث، ومن ثم يذكر رمزا من رموز هذا المرسى في روايته كمنزل الفتاة البطلة ابنة صاحب أكبر مزرعة ويربطها بأحداث وشخوص فحينها يرتكز في مخيلة القارئ بتسلسل هذا الحدث وجود بطل سيكون له دور وستقع في غرامه وحبه ابنة صاحب أكبر المزارع فمن هذا كله وتحديداً من المكان تكون مظهرين: مظهر جغرافي مباشر ومظهر خلفي غير مباشر للمكان باستخدام أدوات لغوية ذات دلالات غير تقليدية مثل سافر، أبحر فيكون المكان حاضراً كالصدى.عندما يقرأ القارئ الواعي النص السردي من منظور مكاني عليه ألا يقف عند المظهر الجغرافي والخلفي، ولكن يقرؤه ضمن هرمنيوطيقا وهو «علم تأويل النصوص» ليتسم بالانفتاح ويتعامل مع المكان ويتفاعل معه بشكل مختلف.

المبحث الثاني

مستويات التشكيل المكاني في رواية في رواية مرسى فاطمة

إن جماليات المكان تعكس الفروق الاجتماعية والنفسية والايدولوجية لدى الشخصيات الروائية، فضلا عن أن الدلالات النابعة من هذه الفروق يمكن أن تكون تعبير عن رؤية الشخصيات للعالم وموقفهم منه، كما انها تكشف الوضع النفسي لهم وهنا يصبح المكان بعد نفسي يسبر أغوار النفس البشرية عاكسا ما يثيره المكان من انفعال سلبي أو إيجابي وعلى حد تعبير صبحي الطعان:" للمكان قيمة تتوضح باكتشاف الابعاد الثلاثة فيه البعد الجمالي والدلالي والايدلوجي".

اعتبار المكان في الرواية بالحيز الذي تدور فيه الاحداث وتتحرك فيه الشخصيات، بل هو الذي يربط الرواية بعضها ببعض وقد سجل حضورا قويا في الدراسات النقدية الحديثة، فوجوده كمكون أساسي في بناء معمارية العمل الروائي، وبناء على هذا الاساس يمكننا أن نتصور رواية "مرسى فاطمة" حيث الأحداث والشخصيات يمكن أن تلعب دورها في الفراغ دون مكان، ومن هنا تأتي أهمية المكان ليس كخلفية للأحداث فحسب، بل كعنصر حكائي قائم بذاته إلى جانب العناصر الفنية الاخرى المكونة.

لقد ظهر المكان في رواية "مرسى فاطمة" للروائي "حجي جابر" بأشكال مختلفة؛ حيث ساهم التفاعل والتضاد بين الامكنة المغلقة، والامكنة المفتوحة في تطوير أحداث الرواية، تشكيل الأمكنة وبلورة قيمها الفكرية والجمالية معنى ذلك: أن النص الروائي يبقى خاضعا لسلطة المبدع، الذي يتفنن في صياغته وتشكيله من خلال الايحاءات التي تكون محمله به، اذن هو يترك للمتلقي الفرصةّ للكشف عن دلالات الامكنة وأبعادها ومن ثم اظهارها فتكون الامكنة استكشاف مواطن الجمال. الاماكن التي تكون (المغلقة والمفتوحة) همزة وصل بين المبدع والقارئ.

1. المكان الخاص المغلق:

فهو الحيز الذي يحوي حدودا مكانية تعزله عن العالم الخارجي ويكون محيط بكثير من المكان المفتوح، فقد تكون الاماكن الضيقة مرفوضة لأنها صعبة الولوج، وقد تكون مطلوبة لأنها تمثل الملجأ والحماية التي يأوي إليها الانسان بعيدا عن صخب الحياة.

اذن المكان الخاص هو مكان منغلق على ذاته، تجري أحداثه في مساحات محدودة، ويعد بعضها مقرا للعيش والسكن. ويستخدم بعضه في مآرب متنوعة ومختلفة، فالبيت مثال لسكن الإنسان يحميه من الطبيعة، والسجن قد يسلبه حريته، والمحل للعمل واكتساب الرزق... وقد تلقف الروائيون هذب الامكنة وجعلوا منها إطارا يضم روايات أحداثهم وأرضية تتفاعل فيها شخصياتهم ولهذا فهي تلعب دورا محوريا في بناء المحكي الروائي حيث "تغدو هذب الامكنة مليئة بالأفكار والذكريات والآمال، وتولد المشاعر المتناقضة والمتضاربة في النفس كمشاعر الضيق والخوف وتخلق لدي الانسان صراعا داخليا بين الرغبات والواقع وربما توحي بالراحة والامان.

وأكثر الامكنة المغلقة ورودا في روايةّ "مرسى، فاطمة": البيت، الغرفة، القرية، المحل، المعسكر، الحاوية، مخيم العجراب، السجن، ولكل من هذه الأمكنة دلالاتها. وتظهر علاقة الشخصية بالمكان الأكثر حميمة وهو البيت يعتبر مسرح الأحداث ومكان ضيق، والمكان الضيق هو أحد مستلزمات رواية الأفكار الممسرحة، إذ لا يمكن للكاتب أن يقيم حواراً فكرياً بين شخصياته ما لم يعمد إلى مسرحة المكان الذي من شأنه أن يخلق صراعاً بين الأفكار، اختراق الشخصيات الروائية المكان وإحياء العلاقات المكانية وجعلها نابضة بالحركة والفعل، كما من شأنه أيضاً أن يخلق ألفة حميمة بين المكان وساكنيه. فحس المكان في النفس البشرية هو حس أصيل ينبع من الحياة الجماعية التي يحياها الفرد في البيت إذ يكون جزءاً من جماعة بشرية غير منسلخ عنها، وهذا الشعور بالانتماء إلى الجماعة الذي يشكل البيت في أجمل صورة قد تبدو أكثر وضوحا في أحيان ولكنها قد تتحول إلى النقيض بسبب مؤثرات خارجية مصدرها شيء آخر. فإن البطل في رواية "مرسى فاطمة" ترك البيت الذي تآلف معه واستقر في أحضانه ولم يستطع حتى دخوله لأنه خشي أن يعني ذلك تخليه عن اللحاق بسلمى.

فالشخصية قد تنسجم مع المكان وتعيش في ألفة معه وقد يكون مناقضاً لها فيخلق هذا التناقض نوعاً من الصراع الذي يحدد أبعاد الشخصية وعلاقتها بالأمكنة وهكذا اختلف إحساس البطل في تلك الليلة حين حاول العودة إلى بيته بعد محاولات فاشلة للإتحاق بالخدمة الوطنية والذهاب إلى معسكر ساوا حيث يظن أن سلمى قد ذهبت: " أخذتني هذه الأفكار في اتجاه البيت ...أدخلت المفتاح في ثقب الباب لا أعرف لماذا شعرت أن مجرد الدخول إلى منزلي لن ينهي ليلتي هذه فقط ،بل حياة كاملة عشتها بكل تفاصيلها عدت إلى خوفي لم اكن مستعدا تماما لطي صفحة عامرة بالسطور لإغلاق نافذة تطل على عمر منتظر ، لوأد أحلام في مقتبل البهجة لم أكن مستعدا لدخول حياة جديدة لا أملك فكرة عما ينتظرني فيها "[33] هكذا أصبح البيت الأليف المألوف مكانا غريبا مجهولا بالنسبة لساكنه الوحيد بل إن مجرد دخوله كان يعني بالنسبة له إنهاء لاماله في لقاء سلمى ووادا لأحلام اللقاء البهيج معها و" فكرت أني خلف هذا الباب سأضع تعبي جانبا لكني سأرتدي تعبا آخر قد يلازمني إلى آخر

[33] حجي جابر، جمالية تشكيل المكان في رواية مرسى فاطمة: ص237.

العمر، ابتعدت عن البيت أكثر[34] ووصفه مرة أخرى وهو يسجل حلول صورة سلمى المكبرة فيه: "فاحتلت واجهة الغرفة التي كانت خالية إلا من سرير فغدت مزدحمة بسلمى.

وابتسامتها والأريكة الحمراء والفستان الأبيض وقد تمدد على سجاد البيت " لم يكن بيتي مبهجا قبل أن تدخله ابتسامتك كالأمطار فتحيله موطئا للفراشات.[35] وحتى صورة المحبوبة حين علقها على جذع الحناء كان لابتسامتها الساحرة أثر عجيب يطرد الأرق ويجلب النشوة ويعبق المكان " فاحتلت ابتسامة سلمى كامل المسافة فوق رأسي. شعرت بها أقرب من أي وقت مضى، وعلى غير العادة غاب الأرق وحلت محله نشوة استيقظت على آثارها وهي تضوع في المكان" [36] هذا وقد عبر المؤلف عن تناقض مشاعر السكان مع أوطانهم وبيوتهم خير تعبير حين قال: "بقدر رغبتهم في الإفلات من الوطن يشعرون بالألم يفزعهم أن يموت يوما بدواخلهم. هؤلاء يغادرون أرتيريا والخيبة معلقة بجباههم .إن الوطن الذي ضاق بناسه إلى هذا الحد صار وسيعا بالأوجاع" [37] إنهم يفرون من الوطن ويتألمون في الوقت نفسه لفراقه .يغادرونه ويخافون أن يغادرهم هو فلا يتمكنون من إخفائه في أرواحهم فيتسرب منهم شيئا فشيئا ،كما يفزعهم أيضا أن تتمكن منهم الذكريات والحكايات فتفسد عيشهم في الوطن البديل الذي يفرون إليه ! إنه العذاب حقا!

2. المكان العام المفتوح:

اما حديثنا عن المكان المفتوح فهو ظاهرة جغرافية تشغل حيزا من سطح الارض، كما أنها حادثة تاريخية لأنها مستعمرة كان الانسان دخلا في نشأتها وتطورها أو ذبولها في بعض الاحيان لقد انتقل بها الروائيون "من مجرد مكان للأحداث إلى موضوع خصب يثري الرواية ويمدها بإحداث الشخصيات "اذن هو المكان المشاع للجميع، حدوده متسعة ومفتوحة. كالمدارس والشوارع ومنها في الرواية مرسى فاطمة: "لم يكن الشارع قد استيقظ بعد...بدأت الحركة تدب في الشارع، وأفواج الطلبة تفد من أماكن مختلفة."[38]. قد يقترن المكان المفتوح في الأذهان عادة بـ (الحرية، والسعادة، والفرح، والحالة النفسية المستقرة)، في حين يكون اقتران المكان المغلق بمعاني (الانطواء، والعزلة، والحزن، أو حتى الكبت والاضطهاد).

---

[34] المصدر نفسه : ص 219.

[35] الرواية نفسها: ص 30.

[36] الرواية نفسها: ص31.

[37] الرواية نفسها: ص 136.

[38] الرواية نفسها: ص 18.

ولكن أحيانا قد يختلف هذا الأمر. لأننا مثلا نرى حال السارد حين علم باختفاء سلمى: "وتبعته هائما في شوارع أسمرا كانت سلمى تتبدى في الطرقات فتصبغها حزنا وكدرا...أمر بشوارع فسيحة غير أن ضيق روحي يجعلها خانقة أهرب منها إلى الساحات العامة لكن شعوري يبقى على حاله"[39] فهذا الانفتاح في المكان لم يقابله انفتاح في الروح واستقرار للنفس، بل على العكس من ذلك انتقل ضيق الروح إلى المكان الفسيح فصار خانقا ضيقا وإن كان في الطبيعة ساحة عامة! ومنها شارع وارساي " بلغت المكان لم أجد غير أصوات الموسيقى الصاخبة ، والحانات المتراصة إلى جوار بعضها وقد أحالت أضواؤها المكان إلى نهار ..." [40] ومنها ساحة مسكرم "مع حلول الفجر كانت ساحة مسكرم التي ينتهي عندها شارع كمشتاتو قد بلغت ذروتها في الازدحام حشود الشباب والفتيات برفقة عائلاتهم ملأت الساحة الكبرى" [41] ومن المدن التي تحدث عنها المؤلف كرن وهي سهل واسع محاط بالجبال من كل جانب : " كرن في لغة قبيلة البلين تعني الحجر في إشارة لما يحيط بها من صخور ضخمة كانت تسمى "سنحيت" في عصور سابقة. على أرضها تجرع الإيطاليون هزيمة نكراء أمام الحلفاء في الحرب العالمية الثانية." وجاء في الرواية ذكر عدد من المدن الأرتيرية مثل أسمرا وتسني والسودانية الخرطوم وكسلا وبورتسودان والمصرية كالقاهرة ومرسى مطروح وسيناء والإسرائيلية كإيلات.

اهم مستويات المكان في الرواية.

إن للمكان أهمية وتأثيرا كبيرا على بناء النص الروائي، من شخصيات وأحداث وغيرها، إذ يحرص حجي جابر على إعطاء كل لحظة قوية وكل مشهد من مشاهد روايته إطار مكانيا ذلك أنَّ الروائي أكثر تنبها للعلاقات التي توحد بين الشخوص التي يبدعها العالم الروائي الذي يحيط بهم، وهذا ربما ما لاحظناه في رواية "مرسى فاطمة"، إذ إنَّ حضور المكان وهو مدينة "ضواحي أسمرا" التي يثني عليها الروائي من خلال شخصيّاته لم تكن في الحقيقة إلا مرسى فاطمة. يبدو هامشياً في القراءة المباشرة، لكنه وبصورة غير مباشرة يأخذ مديات كبيرة في تشكيل ثيمته الروائية، من خلال العلاقة الإحالية بين المكان المتخيل للقاء سلمى والمكان الموجودة فيه سلمى وهو المعسكر وأعتقد بالرواية

[39] حجي جابر، جمالية تشكيل المكان في رواية مرسى فاطمة: ص 23.
[40] الرواية نفسها: ص 28.
[41] الرواية نفسها: ص 35.

، قائمة على استبدال المواقع بين هذين المكانين، إذ تكون لهذا المكان – سطوة على دلالات النص من خلال هذين المسارين "المتخيل والواقعي"، أي يصبح أحدهما وجها للآخر، دون التفريط بأي منهما، ويصبح التاريخ الاحالي والحاضر كليهما حاضرين يمثلان نبض المكان وتناميه وبداية لخلق الارتباط بينهما وإن كان بصورة ضمنية ومن هذه العلاقة ربما تتشكل دلالات المقدس والمدنس لصورة المكان المقدس ظاهريا والمدنس باطنياً، والمستوى الإحالي هنا لدلالة المكان، إن كان المكان التاريخي المتخيل أو الواقعي، هو إحالة الى المكان بوصفه مقدسا، أو "قيمة أو مواضعة متعالية".

ومثالا على المكان المقدس الوطن هو الفردوس رغم كل الممارسات الشائنة التي تتم باسمه وبحق أبنائه ويفضل العودة إلى وطنه رغم ما يتهدده من مخاطر وما ينتظره من أهوال. ورغم محاولات المستعمر القديم –الذي تمثله الفتاة الإيطالية – وإغراءاته بالوطن البديل.

ومن هنا نتجه الى شكل اخر يدعى بالتشكل العجائبي ويفسر بانه تجربة الإنسان في نص الرواية الذي يمثل « مكتوبا يقدم شخوصا وظواهر فوق طبيعية يمتزج فيها الطبيعي بما هو فوق طبيعي بطريقة مقلقة تجعل المتلقي يتردد بين تفسيرين للأحداث، ويشكل هذا التردد العنصر العجائبي في بداية الرواية وذكر مرسى فاطمة) ثم تتبع سيرورة الحداث والتنامي في الرواية كونها موجود في النصوص التي تتعايش على حدود الاجناس والانماط الادبية المختلفة والمتداخلة فيغدو ببنية حكائيه تعمل على التمويه داخل نصوص سردية لا ترسى على معالم وخصائص نوع واحد معين تصبح فيها مشكلة لتصنيف مسالة قراءة بالدرجة الاولى وفضاء رحبا مليئا بالاحتمالات والتأويل وبين الاسباب في توظيف هذه الرواية للعجائبية.

فالأحداث تظهر متسلسلة ومتشعبة فكلما هرب الراوي من شدة وذهب للبحث على حبيبته سلمى عثر على مصاعب أكثر ووجد نفسه في متاهات واخطار جديدة بوصفها أحد أهم المرجعيات النصية الرمزية والفنية في رواية مرسى فاطمة جمع حجي جابر كل انواع الشخصيات الانسانية والحيوانية وحتى الجماد ليجعلها عناصر مرتبطة بالمكان.

لأجد نفسي أسير على غير هدى في صحراء سيناء حتى وقعت في أيدي البدو ...بدأوا في تعذيبي ولما تأكدوا من صدقي أرادوا قتلي فقررت الاستسلام والاستغناء عن إحدى كليتي سيعوضني الله خيرا حين أصل إلى إسرائيل! "[42] كيف له أن يصدق هذا الأمل الكذوب وهو يعلم إن كليته قد انتزعت من أحشائه لتزرع في جسد شيخ فان من الإسرائيليين؟ وأي عذاب رآه في موطنه فحمله على الهروب حتى إلى الجحيم؟ ومع كل الذي قلناه فإن المؤلف ينبهنا بجدية إلى أنخ" تتسلل حميمية الأماكن إلينا ببطء حتى تلك التي لا نشعر بود كبير نحوها تستقر تحت جلودنا ... حتى إذا حان موعد فراقها خرجت

[42] حجي جابر، جمالية تشكيل المكان في رواية مرسى فاطمة: ص181.

في كامل زينتها لتخلق حالة تأبين مؤثرة "[43] هكذا شعر الراوي بالأسى والحزن حين قرر أن يترك الشجراب متجها إلى إيطاليا بعد أن حاولت أم أواب إقناعه بقبول عرض كارلا: "ما رأيك أن تعود معي إلى إيطاليا؟ هناك ستبدأ حياة جديدة وتضع حدا لمعاناتك ".

وشجعه أمير قائلا: "لا أدري ربما تكون إيطاليا مكانا ملائما كي تبدأ من جديد كي تجد وطنا ولو بديلا "[44] وهو الذي يعلم كما قال له كداني أن الوطن البديل قد يبقيك حيا ولكنه لن يهبك الحياة!

ولكنه ورغم كل ذلك قبل أن يفكر في العرض ويحاول قبوله وحين أوشك على الوداع أحس بألم الفراق لمكان لم يدخله إلا راغما وطامعا وممنيا نفسه بسرعة إيجاد حبيبته والعودة بها إلى وطنه.

الخاتمة والنتائج:

نصل الى نهاية هذه الدراسة التي تناولت رواية مرسى فاطمة لحجي جابر:

1. كشفت بنية المكان التشكيلية ومالها من قيمة ومكانة كلون أدبي، لتتعداه الى أبعاد ودلالة إصلاحية اجتماعية من اهم العناصر لجمال النص لما يولده من شحنات عاطفية، تبرز ارتباطه بالشخصيات وببقية عناصر السرد الروائي، كما يمنح الفضاء المكاني قدرا معرفيا، للمتلقي في فهم تحليلات الامكنة داخل الروائية والربط بين مدلولاته يتيح للقارئ تشكيل هيكل الفضاء وبناءاً على تعدد وضعياته وأبعاده الاخلاقية والاجتماعية غاية لتكديس الاحداث.
2. امتاز المكان بقيمة فنية كبيرة في الاعمال الروائية نظرا لاستنادها الى الواقع والخيال فظاهرة المكان متميزة بتصورها وعلاقتها بالمكان وهذا ما حاولنا ابرازه من خلال تناولنا لهذا الموضوع الذي يعتبر وسيلة المبدع في خلق هيكل النص حيث تهيئ المناخ العام الذي ينمو فيه وغاية منه لتأسيس تصور جمالي متكامل للمكان داخل الرواية.
3. تبرز ارتباطه بالشخصيات بالمكان وبقية عناصر السرد الروائي. لتشكيلات المكانية اختارها الكاتب لتكون رموز أفكاره، حيث تكشف عن توجهات الرواية وتعطي للخطاب خصوصية مكانية وجعله قائما على قاعدة التقابل الضدي: أمكنة مغلقة مقابل أخرى مفتوحة. لقد بنا الكاتب

[43] الرواية نفسها: ص 238.

[44] حجي جابر، جمالية تشكيل المكان في رواية مرسى فاطمة: ص 235؛ ينظر: Roberts, Fdgan. R , Themes about Literature, London England Cliffs, NT . Prentice HA 1969,p: 56.

التشكيلات المكانية في الرواية على أساس الثنائيات الضدية بحيث تعبر عن العلاقات بين القيم المتعارضة، فنجد (أماكن مغلقة، أماكن مفتوحة) وبالتالي نلتمس تباين واضح في دلاليته رمزيته.

4. وظف المكان في إبراز علاقة الشخصيات بكل مكان على حده، ما جعلها تتخذ أبعاد مختلفة بقيمة فنية كبيرة في الاعمال الروائية نظرا لاستنادها الى الواقع والخيال فظاهرة المكان الذي يعتبر وسيلة المبدع في خلق الهيكل الروائي. الذي ينمو ويهيئ المناخ العام الذي ينمو فيه النص ويتأسس تأسيس جمالي متكامل داخل الرواية.
5. التشكيلات المكانية اختارها الكاتب لتكون رموزا لأفكاره، حيث تكشف عن توجهات الرواية وتعطي للخطاب خصوصية مكانية وجعله قائما على قاعدة التقابل الضدي: أمكنة مغلقة مقابل أخرى مفتوح.
6. اظهر من خلال النص السردي ووصفه للمكان الجانب المقدس والمدنس في الرواية ومن خلال السرد المتسلسل ظهر لنا الامكنة العجائبية التي تصف الاماكن من خلا التنقل والبحث.

المصادر والمراجع:

1. ابن جعفر، قدامة، نقد الشعر، المطبعة المليجية، القاهرة، د. ط، 1935م.
2. إمام عبد الفتاح إمام، نظرية في الاستطيقا، نشر المجلس الأعلى للثقافة، مصر، د. ط، .2000 م.
3. باشلار، غاستون، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1987م.
4. بحراوي، حسن، بنية الشكل الروائي، الفضاء – الزمن – الشخصية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1990م.
5. حجي جابر، جمالية تشكيل المكان في رواية مرسى فاطمة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2013م.
6. حسين، خالد، شعرية المكان في الرواية العربية المعاصرة، دار التكوين للطباعة والنشر، ط1، 2022م.
7. حمادة سديف، وظيفة المكان وأهميته في الرواية المعاصرة، الانتقاد، العدد 1286، 1 آب، أغسطس 2008م.
8. الحمداني، حميد، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991م.
9. حمودة، حنان محمد موسى، الزمكانية وبنية الشعر المعاصر، أحمد عبد المعطي أنموذجا، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2006م.

10. دراز، سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د. ط، 1984م.
11. سوريور، ايتان، الجمالية عبر العصور، ترجمة: ميشال عاصي، دار منشورات عويدات بيروت، باريس، د. ط، 1982م.
12. شاهين، أسماء، جماليات المكان في روايات جبرا ابراهيم جبرا، دار الفارس للنشر والتوزيع، الاردن، ط1، 2001 م.
13. الضبع، مصطفى، استراتيجية المكان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1998م.
14. عبد الفتاح، عثمان، بناء الرواية دراسة في الرواية المصرية، مكتبة الشباب، د. ط، 1982م.
15. عروي محمد إقبال، جمالية الادب الإسلامي، نشر المكتبة السلفية، الدار البيضاء، المغرب، ط1: 1986م.
16. الفيصل، سمر روحي، بناء المكان، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، العدد 306، 1996م.
17. قويفلي، محمد، المكان الروائي في روايات غسان كنفاني نموذجاً، مجلة جامعة الملك سعود، الآداب، 1993م، العدد2، المجلد5، الرياض: ص 349؛ الجيلاني، عبد الرحمان، تاريخ المدن الثالث (الجزائر، المدية، مليانة) بمناسبة عيدها الألفي، الجزائر، ط2، 1972م.
18. وادي، طه، دراسات في نقد الرواية، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1994م.
19. Roberts, Fdgan. R , Themes about Literature, London England Cliffs, NT Prentice HA 1969.